التعليم العالي من أجل إنتاج المعرفة في المعرفة وإنتاج المعرفة ودور الجامعة

أ.د. مهدي إمبيرش
كلية الآداب – جامعة الفاتح

إن الأطروحة التي يقدمها هذا العنوان ، تعنى بوظيفة الجامعة في كونها تجاوزاً لما هو متداول من تقديم المعرفة ، إلى الوصول إلى الحال التي تكون فيها الجامعة حقلاً لإنتاج المعرفة، وقبل تحليل هذه الأطروحة ، والمعطيات التي تقدمها ، فإن أولى مقتضيات هذا التحليل هو الوقوف عند مفاهيم مصطلحات هذه الأطروحة ، وذلك اعتقاداً في أن أصعب المشكلات ، سواء في تقديم أطروحات ، أو تحليل المقدم منها ، بغية إعادة تركيبه، وهو المنهج الذي ارتأيته ، أقول إن أصعب هذه المشكلات هو تحديد مفاهيم المصطلحات . على أن التعبير بالمصطلح ، إنما يعني صلاحية اللفظ لتأدية المعنى ، هذا دون توهم ثنائية اللفظ والمعنى ، إذ اللفظ هو حال لتمظهر المعنى ، فإذا كان التمظهر كاملاً ، كان اللفظ معبراً عن حقيقة المعنى ، أما إذا كان التمظهر جزئياً ، كان اللفظ بذلك حالاً واقعية ، لا يمكن أن نصفها بالصلاحية ، أما إذا كان اللفظ دون المعنى ، كان اللفظ حالة خواء وفراغ ، ومن ثم نفتح المجال للتمحّل والتأويل، والافتراضات . إن أكبر مشكلات المعرفة منذ بدايات التفكير ، إنما تدور في

إطار هذه المشكلة التي أفرزت العديد من الإشكاليات ، وكلها تقع في ذات المجال ، أي مجال المعرفة وما يتولد عنها من قضايا ، وهي موضوعات الفكر الفلسفي ، قديمه وجديده ، وأن اختلفت ، لذات الإشكاليات ، الألفاظ ، أو هذه التي نطلق عليها المصطلحات . إن السؤال الأول الذي نطرحه قد يبدو بديهياً ، وإن كنت أحذّر من أن أكثر الأسئلة بداهة ، على ما يُظن ، هي أكثرها تعقيداً وصعوبة ، أعود للقول : ما الجامعة ؟

المعالجة الأولى تصب في ذات إطار الأطروحة ، فالمصطلح يدل على أن هناك (شيئاً) – قابلاً للجمع ، أي أنه يتمتع بهذه القابلية قبل أن يصير إلى الجامعة ، بحيث تكون الجامعة هي المعامل الموضوعي الذي يجعل من هذه المتكثرات واحداً ، دون أن يكسبها صفة الأحذية . إننا نتحدث في إطار المعرفة ، إذ كما هو معلوم ، فإن الواحدية هي غير الأحذية ، الواحدية تعني القبول بالتكثر والتنوع ، داخل إطار الواحد ، بينما الأحذية هي إلغاء لهذا التكثر من الأصل . نضيف إلى ذلك إلى أن القول بوجود معرفة ، سيؤدي بنا إلى المشكلة الفلسفية الأولى ، والمتجددة ، هل المعرفة قبلية أم بعدية ، وفي كلا الحالين ، ما هي أدة أو وسيلة الوصول إليها؟ وما هو مصدرها ؟ ثم ما هو اتجاه الحركة إليها ؟ هل هي حركة تراجعية ؟ أو تقدمية ؟ أم حركة أستعلائية ؟ أو ترانسنتدالتية ؟ وبالإمكان أن نولّد الكثير من الأسئلة بناء على هذه الإشكاليات التي طرحت أمام الفكر الإنساني ، ودار حولها ولا يزال ، التفكير الإنساني . على أن ذلك كله سوف يقودنا وإن كان يمر عبر الدليل (الأنطولوجي) ، الوجودي للمعرفة ، إلى قضايا الأخلاق ، بمَعنى هل ستكون خاضعة لمعطيات الأشياء ، أي للمقاييس والأسعار ، والأوزان ، وما إليها ؟ أي هل نقبل بتشيؤ الأخلاق ، ومن ثم قبولها بذات المقاييس والمعايير ؟

إن الأطروحة التي نقدمها هي ، أن الفكر الإنساني لا يخلق ، بل يكتشف ، بمعنى أن القوانين سابقة للفكر الإنساني بداهة ، وإن كان ذلك لا يلغي دور الفكر الإنساني في عملية الاكتشاف هذه ، وفي قدرة هذا الفكر على إدراك العلاقات ، ومن ثم إعادة صياغة هذه القوانين، بحيث تكون قابلة للإدراك ومن ثم التحقق ، على أن ذلك ليس على سبيل الإطلاق ، فالإنسان جزئي ، ومن هذه الجزئية يمكن أن نقرر أن وسع الإدراك والمعرفة سيكون جزئياً كذلك ، هذا بالنسبة إلى نفسه ، أما بالنسبة إلى الشيء موضوع الإدراك ، فهو كما أشرنا في المقدمة ، فإن التمظهر الكامل هو حقيقة الشيء ، ومن هنا ينتهي الجهل بهذا الشيء أو المتشيأ، أو أن التمظهر الجزئي ، ومن ثم تكون هناك إمكانية لأدراك حقيقة الشيء . يلاحظ هنا ارتباط الإمكانية بالمكان ، وارتباط ذلك بالشيء ، إذ أن المتمكن هو المتشيأ ، وإن كان هذا المتمكن يملك القابلية للتشيؤ حتى الاكتمال ، ومن ثم يكون المكان كذلك حال إمكانية , مع تأكيدنا أن التمظهر بهذه الخاصية لايمكن القبول به على أنه الحقيقة ، ما لم يتم التأكد من أنه كذلك ، ذلك أن مفهوم الامتلاء يقتضي أن يكون الظاهر هو الباطن سواء بسواء ، و إلا أدى إلى ذات المشكلات التي أوقع فيها منهج التفكير (المشرك) ، الكثير من الذين حاولوا إدراك هذا المتشيأ ، إننا هنا نتكلم عن المتشيأ ، الممكن إدراكه ، وإن كان الخلط قد تم من ثلاثة أوجه ، أما اعتبار أن حقيقة الشيء هذه ظاهرة (المذهب الظاهرتي) أي أن (النومن) أو (الاسم) هو على ما يبدو عليه ، وأن هذا يكفي حدود المعرفة التي توصف بأنها علمية ، وهي القابلة للإدراك الحسي المباشر ، وللاستقراء ، والتجريب ، ومن ثم التجريد ، أي وضع قوانين عقلية تتجاوز ظاهر الشيء ، أو أن هذا الشيء ليس حقيقياً أصلاً ، ومن ثم ربط موضوع أخر مغاير تماماً ، ويقع في ذات أشكالية المصطلح ، أي أنه ربطه بموضوع (الحق) ، مع الفارق بين الواقع ، والحقيقة، والحق ، فالواقع والحقيقة درجات في اكتمال

المتشيأ ، بينما الحق لا يتعلق إلا بمن (ليس كمثله شيء) ، على أن الدليل الأنطولوجي على وجود هذا الذي ليس كمثله شيء بالإمكان استقاؤه من الشيء ذاته ، فالاسم وإن كان يتمظهر في الشيء إلا أنه من أسماء المعاني ، بحيث يكون تمظهره دليل وجود الاسم لا الاسم كخطوات لاحقة ، ولهذا يصدق على التجارب هذه التي نصفها بالعلمية ، فإن تمظهر (الجاذبية) ، مثلاً هو دليل على وجود الجاذبية ، ولكن ليس هو الجاذبية عينها ، فالإدراك المباشر ، أوالتجريب لا يدور إلا ضمن هذا المتمظهر أو المتشيأ، لا الاسم ، وهذا ما جعل الحسيين والماديين بعامة ، لا يقبلون إلا بالتجربة دليلاً ، فإذا ما أعيتهم الحيلة ، ذكروا أن ما لا يمكن التحقق منه ، هو غير حقيقي أو أنه غير ممكن الإدراك ، وبالنتيجة فقد سمح ذلك ، ومن قبيل المكابرة ، بالقبول بالفصل ، أو ما يسمى بالعلمانية ، التي هي امتداد لتلك الثنوية القديمة بدءاً من الأساطير الشرقية إلى الفكر الفلسفي والدين ، إلى هذا الفصل التعسفي الذي سمح كما أشرت بتبرير التفوق والاستعلاء.

إن مفهوم الجامعة بهذا يعني كونها تلك التي تلتقي فيها المعارف القبلية ، ليتخرج الإنسان منها برؤية في الحياة والكون ، أي أن تمد الجامعة الطالب بذلك النسق ، الذي كان الفلاسفة والمفكرون يبحثون عنهم ، وهو ما أطلق عليه اليونانيون (اللوغوس) أو (اللوجك) (المنطق) الذي يكون في مقدوره أن يجمع هذه المعارف على تعددها ، وهو ذات المعنى الذي يقدمه المصطلح الأوروبي (University) فهذا الكون أو (الفرسال) سيتم توحيده ، أي سيصبح حالة واحدية (Uni) ومن ثم يتخرج الطالب وقد تخلص من هذا التشرذم والتشظي ، وهو ما سيؤثر في حياته ، أي في علاقاته مع نفسه ، ومع غيره من بني الإنسان سلباً ، إذا استمر ، بل حتى مع ما هو غير ذلك في هذا الكون . وإن كنا نتجاوز ذلك

إلى طموح أبعد ، إلى مرحلة أخرى هي مرحلة الإنتاج ، أي إنتاج المعرفة ، أو قل أن المتخرج في الجامعة مستعيناً بهذا النسق (اللوغوس) يصبح قادراً على الاكتشاف والإبداع ، أي الانتقال من مجرد الاكتشاف والتحليل والتركيب، إلى إعادة تركيب المركب ، وهذا هو الإبداع .

إذن فرسالة الجامعة كما أشرت أبعد من مجرد تقديم معارف ، أو حتى مساعدة الطالب على إعادة فهم هذه المكونات المعرفية في نسق واحد ، بل إلى أن يصبح الإنسان منتجاً للمعرفة ، وإن كان هذا كله يحتاج إلى فلسفة ، ويظل الموقف من المعرفة ، وطرائق الحصول عليها مؤثراً ليس في موقف الإنسان منها فحسب بل في صوغ الإرادة والسلوك ، ومن ثم المنظومة القيمية التي تؤسس بداهة على هذه المنظومة المعرفية ، أي المعارف باعتبارها منظومة أو نسقاً .

لقد رأينا نظريات كثيرة في المعرفة أثرت فيْ شكل المؤسسات التعليمية وفي نظريات التعليم والتعلم ، فالكهنوت القديم ، وربما المتجدد في شكل (الثيوقراطية) ، كان يدعي أنه بإمكان قلة وحدها معرفة (الثيوس) ، أو الغيبي ، المتجاوز لمحدود المكان والزمان ، والذي وضعه ضمن (الحق) ، أي أن الجزئي يصير في مقدوره أن يدرك الكلي والمطلق ، غير المحدود مكاناً وزماناً ، وبعبارة أخرى أن المتشيأ سيدّعي أنه يدرك ما ليس كمثله شيء ، ولأن هذا الذي ليس كمثله شيء هو مفارق للذات العارفة ، فإن محله سيكون عندهم في (الأعلى) السماوي ، ويكون الوصول إليه وصولاً معراجياً ، بغض النظر عن كيفية العروج ووسائله ، وبالطبع لن يكون العروج ليقع في إطار الممكن البشري ، هنا كان البحث في الأفكار والفلسفات القديمة عن المنهج ، أو هذا الذي يسميه

الصينيون (الطاو) ، الذي هو تجاوز لتناقص (الين) مع (اليونج) ومن ثم تصبح المعرفة حالة (عرفان) ، أو حالة (صوفيا) تتم عن طريق الاتحاد ، أي اتحاد (الأنا المتعرفة) على (الاسم) مطلق العلم أي الاتحاد بهذه (الصوفيا) . هذا الموقف سوف يتخذ منهجاً رافضاً لهذا الوجود المتشيأ ، باعتباره شراً لابد من الخلاص منه ، وهو ما أوجد فكرة التطهر، باعتبار الجسد والكون دنس (نجاسة) لا يتم الإشراق إلا إذا تخلصت الروح منه ، إن هذا الموقف أوجد كما أشرت قلة تحتكر المعرفة بحيث يتحول (الثيوس) إلى (ثيوصوفيا) ويكون الموقف المعادي للناس ، أو الجماهير ، لأنهم يقابلون المادة أو الشهوات ، ثم يكون للحقيقة التي تساوي من قبيل المغالطة (الحق) ، ظاهراً وباطناً ، الظاهر للعوام ، والباطن للخاصة، ليتحول ذلك إلى قوة من خلال التمركز (ثيوقراطية) في أشكال متعددة بدءاً من السحر والشعوذة ، حتى هذه المؤسسات الكهنوتية ، بألقابها وشاراتها وتراتبيتها ، رمزاً لحالة الصعود أو المعراج ، ثم تكون فلسفة الجدل الصاعد والهابط ، التي قعّد لها أفلاطون ، الفيلسوف اليوناني المعروف ، والذي حاول أن يعدل النهج أو الطريق ، فالنفس أو (العقل) لا يسعى بهذا إلى الاتحاد بل الاتصال ، ومن روحانية الصوفية ، تكون عقلانية (الفيلسوف) التي هي حكر على القلة ، (الفلاسفة) القادرين على إدراك الحقيقة ، أو عالم المثل ، هنا يكون عالم المثل هو العالم الكلي ، أو الكامل ، أو المطلق ، ولا تفوتنا الإشارة هنا إلى أن أفلاطون كان يتخذ هو الآخر موقفاً معادياً لتمظهر المتشيأ ، باعتباره وهماً أو ظلالاً (أمثولة الكهف) ويكون الخلاص على خلاف الصوفيا ، أي ببرنامج تعليمي . إن المعراج الأفلاطوني سيكون في البدء إمكانية عامة ، أي تعليماً حراً ، وإن كان لا يسلك المعراج إلا محبو المعرفة أو محبو (الصوفيا) (الفيلي صوفيين) وبالطبع تكون المعرفة عنده مفارقة وعلوية كذلك ، كما أن برنامجه

التعليمي في الأكاديمية يؤسس على فكرة التذكر ، فالإنسان عنده ليس صفحة بيضاء ، بل لازالت فيها سطور هي بقايا عالم المثل ، وأن النفس الإنسانية فقدت توازنها حيث حلت في الجسد الذي لابد أن تتخلص منه ، فالمؤسسة التي أنشأها (الأكاديمية) رأت فكرة التعليم من طريق التذكر أي أنها لا تعيد إنتاج المعرفة ، بل أنها تعكس هذه المعرفة ، وبمقدار اقتراب الإنسان منها ، يتجاوز الوهم إلى الحقيقة ، وربما هذه التي لا تزال تؤثر في أساليب الاختبارات التي تقوم على مجرد تذكر المعارف وعرضها .

على أن أفلاطون قد أثّر في الصوفية بأن قدم تصوراً نظرياً لها ، وهو ما عرف (بالأفلاطونية الجديدة) ، أو (مدرسة الإسكندرية) والتي هي مزيج من الفلسفة واللاهوت ، والتصوف ، هدفها البحث عن (الغنوصيا) .

أما المدرسة المادية فإنها تقوم في المقابل على نقيض هذه الإطروحات ، أي أن المادة هي الحقيقة ، وأن وسائل إدراكها هي الحواس ، والتأكد منها يكون بالتجربة ، هنا تكون (الظاهراتية) ، فصلاً من فصول هذه المادية ، ولأن المادة ذات حضور واقعي بحكم كونها شيئاً، فإنها سوف تتخذ عندهم ، أو عند فصل من مدرستهم ، وضعاً (Pose) ، وهو ما أوجد ما عرف بالمدرسة الوضعية (Positivism) بحيث يكون كل ما ليس متموضعاً وهماً . إن المدرسة الوضعية بذلك تؤسس لنظرية في التعليم تقوم على تقديم الإنسان باعتباره (صفحة بيضاء) ، كما ذهب إلى ذلك (جون لوك) ، كما نراها تتقدم ليكون التعلم من طريق الارتباط الشرطي ، وهو ما أسس لما عرف بالمدرسة السلوكية (جون واطسن نموذجاً) .

إن هذه النظرة للمعرفة ، أي هذه النظرة الجزئية سوف تعكس أثارها على الإنسان والكون والحياة ، بل ومعيارية السلوك ، فالمادية لا تقبل إلا بالقياسات المادية ، وهي في ذات الوقت تهمل موضوع السياق (أو اللوجك) ، إذ الفردية هي ما يتم التأسيس عليها . وقد رأينا جذور ذلك عند ديمقريطس ، والسوفطائيين ، وخاصة بروتوغوراس . فالمدرسة الفردية (الانجلوسكسونية) ، والتي أنشئت تأسيساً على الفلسفة الوضعية ، ترى إن الإنسان محكوم بقوانين الفيزيقا ، الفيزوقراطية ، في مقابل (الثيوقراطية) ، ومن ثم يكون الإنسان مخلوقاً جبرياً محكوماً بقوانين الأداتية والآلية ، وإن كانت الفلسفة الوضعية المتجددة ، (الأنجلوسكسونية) قد بدأت تتجه نحو إدعاء (العقلانية) بل والدخول حالة (الصوفيا) ، من خلال التجريد الرقمي ، أي أن كل شيء سوف يختزل في رقم ، وهو ما يعبر عن حالة تأزم حاد في الفكر المادي ، في صياغته الوضعية ، وهي أزمة لا يخرج منها القول بنهاية التاريخ ، أو إدعاء التقدمية ، أو العلمية وما إليها ، إنها تعيش أزمة بكل ما تحمل الكلمة من معنى .

إن هذه المؤسسات التعليمية (أو الجامعة) باعتبارها أعلى هذه المراحل تتقلب بين أن تكون المعرفة غاية في ذاتها (العقلانية) القديمة المتجددة ، أو أنها وسيلة للنفع والكسب) النظرية المادية في آخر أشكالها (الليبرالية الجديدة) ، بحيث تتحول الجامعات لإنتاج أدوات لسوق العمل، أي أن الجامعات في شكلها الجديد ليست سوى مؤسسات لإنتاج عبيد العصر الحديث ، الذين يكونون (طاقة) للعمل (والإنتاج) ، ومن ثم أخذ الحديث عن مخرجات التعلم ومدخلات التعليم ، أي أن الجامعات الآن تدرس من أجل أن يتحول الإنسان إلى شيء ، أو رقم ، تماماً مثل البضائع التي يدفع بها إلى السوق ، بحيث يضحى كل شيء سوقياً ، وتتحول مفاهيم القيمة (الإنسانية) إلى مجرد أسعار وأثمان خاضعة لقانون البورصة.

هنا تحاول النظرية الجماهيرية أن تخرج الإنسان من حالة التقلب هذه ، أي بين أن يكون الإنسان شيئاً ، أو أن يتحول إلى (ليس كمثله شيء) ، لتكون المعرفة مرتبطة بموضوع الحرية باعتبارها ، أي الحرية حاجة ، وبذلك يصبح الإنسان هو الغاية ، وتعود هذه التي تقدم في شكل غايات إلى أن تكون في وضعها الطبيعي ، باعتبارها وسائل ، لذا فإن الجهل سوف ينتهي عندما يقدم كل شيء على حقيقته ، إنها إذن نظرية في إطار تقديم الأشياء ، وإن هذه الأشياء قابلة لأن تتمظهر بالكامل ، أي أن تتجاوز حالة اللامتظهر (الغيب) ، أو حالة التمظهر الجزئي (الواقع) وبذلك تجعل النظرية الجماهيرية المعرفة الكاملة (حقيقة المعرفة) أمراً ممكناً ، أي أنها تجعل المعرفة في إطار المتكامل والمستقبلي ، وبذلك تضع منهجيتها في إمكانية المعرفة وأن تتحول إلى علم عندما تصل إلى حالة التمظهر الكامل ، أما هذا (المفارق) أو بالتعبير القرآني (الحق) فلايمكن إدراكه ، بل يمكن تقديم الدليل (الأنطولوجي) على وجوده من خلال تمظهر إرادته ، لا تمظهره هو ، فهي إذن تخرج الإنسان من شطحات (الصوفيا) ومن تجريدات العقلانية ، بل ومن نظريات ما يسمى بالمؤلهة ، أو القائلين (بوحدة الوجود) والذين يرون أن الكون المادي هو الله ذاته ، وهي نظرية تقلب المفهوم الصوفي في الاتحاد ، الذي عبر عنه الحلاج والسهردودي في شكله المتطرف .

المعرفة في النظرية الجماهيرية بذلك وسيلة ، والإنسان يزداد وعيه بازدياد هذه المعرفة ومن الوعي والمعرفة تكون إرادة الفعل ، ومن ثم فعل الإرادة ، وهنا تصبح الحرية حاجة لتحقيق الفعل ، ويكون الفعل الإنساني هنا هو تجل لإرادة الفاعل (الإنسان) أي هو تجل لكينونة الإنسان ، أكثر من كونه تجلياً لوجوده ، فإرادة المعرفة ذاتها عند أفلاطون مثلاً ، ومن قبله سقراط ، وإرادة

المنفعة عند البراغماتين ، وإرادة الحياة البيولوجية عند شوبهناور ، وإرادة القوة عند نيتشه ، متكامل لتكون إرادة الإنسانية ، أي الإرادة التي يكون بها الإنسان إنساناً ، حتى قيمة العمل فإنها لا تظل منظوراً إليها من خلال نتاج العمل القابل للمقاييس المادية ، بل إن الإنتاج ذاته يضحي تمظهراً كما أشرت للذات الفاعلة ، وبذلك يكتسب الإنتاج قيمة إنسانية .

إن النظرية الجماهيرية في المعرفة والتعليم من خلال تقديم بديل الحضور والمباشر ستعمل على إلغاء حالة الاغتراب ، لا اغتراب العامل عن إنتاجه ، كما يقول ماركس ، بل اغتراب الإنسان المنتج عن ذاته الإنسانية ، وهو ما يجعل لنظرية التعلم والمعرفة في النظرية الجماهيرية قيمة أخلاقية ، إن الإنسان بهذا قد يرفض هذه الحياة إذا كانت تمس كليونته ،وهذا هو الإنساني حقاً ، أما مجرد أما الدفاع عن الوجود ، فهذا أقل من أن يوصف بالإنسانية ، إذ يستوي فيه البشر مع البقر . هذه بعض الملامح للفلسفة التي أرى أن يؤسس عليها نظام التعليم الجامعي ، حتى تكون الجامعة حالة University لا Diversity أي جامعة لا مفرّقة .